من أرشيف سينما الكنيسة: توماس بيكيت

Thomas Becket

مشبك وعروة بيد المسيح

بقلم الأب حبيب هرمز

مقدمة

بعد ان دخل البث التلفزيوني العراق في مطلع السبعينات من القرن الماضي، تمتع المشاهدون بمتابعة احد اروع الأفلام التي لازالت حتى يومنا محط اعجاب ومتابعة محبي هذا الفن. إنه فلم بيكيت الذي يروي قصة استشهاد رئيس أساقفة كانتربري (بريطانيا) في القرن الثاني عشر الميلادي. وخلال زيارتي لكاتدرائية كانتربري جنوب البلاد رغبت في الكتابة عن هذا الموضوع لأهميته من عدة جوانب ايمانية، ثقافية، دينية، سياحية، تربوية وغيرها.

ساحاول في هذه المقالة توضيح اهمية السينما للمؤمنين، وتلخيص قصة الفلم ونتائجه. متمنياً من مسؤولينا أنه كما يهتم الغربيون بالإعلان عن قديسيهم، ان لا ينسوا شهداء المشرق وقديسيه في اعمالهم الفنية كي نبقى نتواصل مع جذورنا حيث ينابيع الحياة.

هذا الفلم

اعتقد من الضروري، لا بل من الواجب ان يكون لدينا موقف تجاه السينما كوسيلة مهمة تؤثر سلباً أو إيجاباً. ويفترض بمشاهد الفيلم، ان يحلله، ثم ينقده، واخيرا يقيمه. والتقييم بالنسبة لنا هو تقييم ادبي بالدرجة الأساس، أي كيف عولج الفعل البشري. ولقد اكدت الكنيسة الجامعة عبر مجامعها على ضرورة تقييم وسائل الإبلاغ، حيث من الضروري السعي الى جني الفائدة من الجو العام للفيلم، لا تفاصيله الصغيرة. المهم كيف يعالج الفيلم القيم المسيحية.

لا يوجد فيلم غير مؤثر، وهذا التأثير يبقى في الذاكرة مدة معينة تصل الى سنوات أو اكثر . ولكن ان يبقى الفيلم مؤثرا لعشرات من السنوات ويحصل على جوائز عالمية فهذا دعانا الى الكتابة عنه. إن شخصية بطل الفيلم هو قديس من الحارين لأجل المسيح، حتى بذل دمه. لم يكن دافئاً أو بارداً.

يستحق الفيلم الإشارة إليه من منبر مجلتنا الغراء لتشجيع القراء على مشاهدته، فهو مقو للإيمان أيضاً. إنه فيلم يعالج موضوعا ساخناً، ألا وهو موضوع العلاقة بين الكنيسة والدولة، ومواضيع مثل الشهادة والإلتزام.

الفلم يقيم افعال الملك البريطاني (هنري الثاني) أو رئيس اساقفة بريطانيا، ومسائل اخلاقية، مثل مسألة الخطايا التي يتطرق اليها، مثل: الزنى والقتل والعنف والأنانية.

يعتقد البعض إن الأفلام وسيلة للهروب من الواقع، ولكن فلمنا هو مدرسة نتعلم منها الكثير. وكون هذا الفيلم لم ينته نهاية سعيدة كما في الكثير من الأفلام، حيث يستشهد رئيس الأساقفة، لهو مدعاة الى التساؤل. ألا يقول لنا ما كان الرب يؤكده دائما بخصوص مصير من يتبعه؟

الملك وبيكيت قبل تكريس حياته للرب

حياة بيكيت

تعني كلمة بيكيت بالإنكليزية عدة اشياء من بينها المشبك والعروة التي نلاحضها كثيرا في ملابسنا لربط قطعتين مع بعض. ربما لم يكن يدر في رأس الشاب توماس بيكيت أن نهايته ستكون هكذا، حيث بواسطته سيقوي الرب ايمان الضعفاء.

تقول امه في مذكراتها أنها عندما كانت حامل حلمت بأنها ولدت في داخل كاتدرائية كنتربري. فقالت لها القابلة إن ابنها سيكون كردينالاً ولم تصدق الام!

ولد بيكيت في لندن سنة 1118 من كلبرت وماتيلدا. توج رئيساً لأساقفة كنتربري سنة 1162، واستشهد يوم 29 ديسمبر سنة 1170 حيث تحتفل به كنيسة انكلترة والكنيسة الكاثوليكية معاً، لأنه في ذلك الزمان كانت كنيسة انكلترة متحدة مع كرسي روما.

لقد انشغل القديس بالصراع الذي دار بين الملك هنري الثاني والكنيسة حول حقوق كل منهما. حاول الملك هنري، حاله حال أي ملك نورماندي، أن تكون له سلطة مطلقة على الكنيسة والدولة. وكان بيكيت يعمل مستشارا للملك قبل ان يكرس نفسه للكنيسة. لقد حاول بيكيت استحصال الضرائب التي كنت مقررة سابقاً ومفروضة حتى على الكنيسة. فأدى هذا الإجراء الى توتر مع الكنيسة. في وقت كان بيكيت كعلماني يصاحب الملك في جولاته (في فرنسا). الجولات الملكية المشحونة بالشبهات والتصرفات الغير مقبولة لا دينياً ولا اخلاقياً، ولكنه لم يكن يتدخل في شؤون الملك الخاصة. ادى هذا الموقف الى كسب ود وثقة الملك الى حد انه حمل خاتمه. لا بل أودع الملك ابنه (وهذا كان تقليداً لدى النبلاء) لدى بيكيت كي يقضي فترة عنده، مما جعل ابن الملك يتعلق ببيكيت وتربيته الرافضة لطبيعة تصرفات الأب.

اغلفة الفيلم الذي يشاهد في مكتبات انكلترة

في تلك الأثناء مات رئيس اساقفة كنتربري ثيوبولد Theobald . فرشح الملك هنري مستشاره بيكيت ليحل محله. فوجئ بيكيت بهذا الطلب، ووافق بعد صلاة عميقة، مسلماً ذاته للعناية الإلهية. جرت رسامته كاهنا، ثم أسقفاً، ليصبح رئيس أساقفة كنتربري.

حاول بيكيت التخفيف من سيطرة الدولة على الكنيسة ونجح في ذلك الى حد بدأ الملك منزعجاً من قراراته وعلاقته القوية برومة. عقد الملك اجتماعاً بعد سنتين من رسامة بيكيت كي يخفف من العلاقة القوية من الفاتيكان. بدأت المشكلة حينما رفض بيكيت التوقيع على مقررات الإجتماع. فطلب الملك منه الإمتثال امام مستشاريه الكبار، ولكن بيكيت رحل الى اوروبا. رحب الملك الفرنسي لويس السابع ببيكيت ووفر له الحماية لمدة سنتين في دير بونتجني Pontigny.

نصح البابا الكسندر الثالث بيكيت ان يبدي دبلوماسية اكثر مع الملك هنري بخصوص مسألة الحرومات تجاه الأشخاص الرافضين لتعاليم الكنيسة.

بعد مفاوضات في غابة خارج باريس، قبل بيكيت العودة الى انكلترة، مؤكدا فيها على استقلالية الكنيسة عن الدولة، وحقه في رفض من يتواطئ مع الملك ضد الكنيسة. فسمع الملك وهو في نورماندي بهذه النتيجة.

الإستشهاد

الملك هنري يتأمل في تمثال للشهيد موضوع فوق قبره جنوب بريطانيا

بدأ الملك يصرخ معبراً عن خيبة امله في بيكيت طالبا التخلص منه. ولم يكن، وهو يتحدث بمرارة، بكامل قواه العقلية. فقد كان عاطفياً الى حد أنه كان يندم بعد كل حديث شديد اللهجة. ولكن عندما سمع مستشاريه الحقودين على الكنيسة ما قاله بحق بيكيت، اخذوا كلامه على محمل الجد. فطلب خيّالة الملك الأربعة، ان يسمح لهم بقتل رئيس الاساقفة. وهكذا في 29 كانون الأول 1170 وصلوا الى كنتربري، وابلغوا بيكيت كي يأتي معهم ليتم التحقيق من تصرفاته، ولكنه رفض.

انتظر الأربعة موعد القداس في الكاتدرائية كي يستلوا سيوفهم، واندسوا من مواقع خفية كي لا يراهم الرهبان وهم يؤدون صلاتهم اليومية. وقد قال شاهد عيان في احدى مخطوطات احد الأديرة، أنه على الرغم من ضربه على رأسه بالسيف مرتين فقد كان واقفا، ولكن بعد الضربة الثالثة ركع واسلم روحه مقدماً ذاته ذبيحة مقدسة. وقد كتب احد الحاضرين في محل الإستشهاد أن الشهيد قال بصوت خفيض " أحتضن الموت لأجل اسم يسوع ولحماية الكنيسة".

يجدر بالذكر هنا أن القديس عندما كان مستشاراً للملك قبل تكريس ذاته للرب، عفا عن احد المتمردين الذين حاولوا قتل الملك ولم يقتله بعد إلقاء القبض عليه. أثار هذا الموقف الرحوم على المتمرد، مما ادى الى حصول تحول في حياته الى حد انه دخل الرهبنة، وكان مرافقاً لبيكيت في جولاته، وحاول الدفاع عنه لحظة استشهاده فاستشهد معه على مذبح الكاتدرائية.

مخطوطة من القرن 13 تظهر اعداد بيكيت

طالب المؤمنون في أوروبا بتطويبه مباشرة. وهكذا في سنة 1173 أي بعد ثلاث سنوات طوبه البابا ذاته. وبعد سنة من تطويبه اعلن الملك عن ندامته على فعلته. طالباً التكفير عن فعلته، من خلال تعريض جسده للسياط كل سنة في نفس يوم قتل رئيس الأساقفة، وفي نفس محل الإستشهاد.

تحول محل الإستشهاد الى مزار شهير حيث زاره كاتب المقال مع الأب صفاء حبش، ووقفنا في طابور الزوار لنصلي بجانب قبره لأجل الإكليروس في العالم وخصوصاً في العراق، ولأجل الوفاق بين الكنيسة والدولة في كل انحاء العالم. ويعتبر المزار اشهر مزار بريطاني منذ سنة 1220. واليوم يقام قداس احتفالي مرة سنوياً من قبل رئيس أساقفة كنتربري بهذه المناسبة.

كاتدرائية كنتربري جنوب انكلترة

الفلم

تم تصوير الفلم سنة 1964، وهو من بطولة بيتر أوتول بدور الملك هنري وريشارد بيرتون 1925- 1984 بدور الشهيد توماس بيكيت. الفلم من انتاج هال واليس Hal Wallis.

حصل الفلم على العديد من الجوائز العالمية من بينها العديد من جوائز الأوسكار عن احسن نص، واحسن بطل (ريتشارد بيرتون عن دوره الذي جسّد حياة القديس الشهيد بيكيت) وبيتر اوتول الذي جسّد شخصية الملك هنري الثاني، وعن احسن موسيقى، واحسن صوت، واحسن تصميم ملابس، واحسن اخراج.

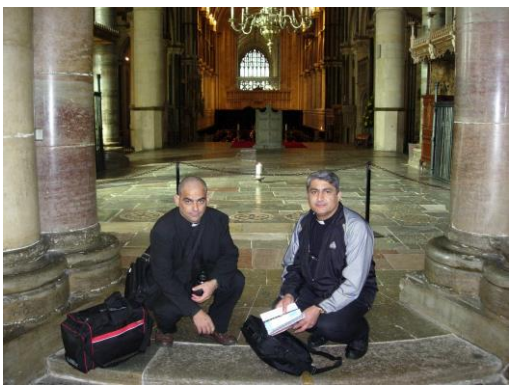

كاتب المقال بجانب ضريح القديس مع الأب صفاء حبش

على الرغم من كون مشروع الفيلم لم ينجز لهدف ديني، ولكن يمكن القول انه علمنا الكثير. نتعلم منه إن الإيمان يتطلب الإلتزام رغم الصعوبات. لقد صبر القديس كثيرا وضحى بحياته؛ رفض الخطيئة في وقت كان في قمة السلطة؛

ابدى تواضعاً في حياته؛ قارن عمله بالصلاة دائماً. يذكرنا الفيلم بالأمثال الإنجيلية كمثل الحنطة والزؤان والوزنة وغيرها.

ملاحظة: اعتمدت على نسخة الفيلم وكتيب صدر عن حياة القديس بعنوان:

Thomas Becket, J.B.Midgley, The Incorporated Catholic Truth Society, London, 2008

لقد نشر المقال في مجلة نجم المشرق سنة 2008